﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التّوبة: 51]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ الجوابِ على قولِ المنافقين، بإعلانِ التّوكّلِ على الله الواقي من كلِّ أذًى

الآيةُ الكريمةُ تلقينُ جوابٍ لقولهم: ﴿قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ المُنبِئِ عن فرحِهم بما ينال المسلمين من مصيبةٍ؛ بإثبات عدم اكتراث المسلمين بالمصيبة وانتفاء حزنِهم عليها؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ ما أصابهم ما كان إلَّا بتقدير الله لمصلحة المسلمين في ذلك[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تسليمُ الأمرِ لله، والتَّوكُّلُ عليه، حمايةٌ من كلِّ منافقٍ حاقدٍ

أرشدَ اللّهُ تعالى رسولَه صلواتُ الله وسلامُه عليه إلى جواب هؤلاء المنافقين الذين تُفرحُهم مصيبتُه، وتسوؤهم نعمتُه وغنيمتُه، بالقول: لن يصيبنا إلَّا ما كتبه اللّهُ لنا، وأوجبه علينا بوعده في كتابه، وتقديرهُ لنظام سننهِ في خلقه، من نصرٍ وغنيمة وتمحيص وشهادةٍ، وضمان لحسن العاقبة هو وحدَه مولانا يتولَّانا بالتَّوفيق والنَّصر، ونتولَّاه باللُّجوء إليه، والتَّوكُّل عليه، فلا نيأس عند شدَّةٍ، ولا نبطر عند نعمة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وَجْهُ الافتتاح بفعل الأمرِ ﴿قُل﴾:

تحقيقُ التَّوكُّل والتَّسليمِ، ودفعُ شُبهةِ بَشريَّةِ القول، عنِ الرّسولِ الكريمِ

شاءَ الله تعالى أن يبلِّغَ خطابَهُ سبحانه للخلق عن طريق رسوله الله ﷺ، وهو الأمينُ في البلاغ عن الله تعالى، لا يترك كلمةً واحدة من الوحي دون أن يبلِّغَها للبشر، وما دام الحقُّ ﷻ هو الَّذي أمره، فهو يبلِّغ ما أُمِرَ به، حتى لا تُحرَمَ آذانُ خلقِ الله تعالى من كلِّ لفظٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/413.

صدرَ عن اللّه سبحانه[1]، والأمر هنا منه تعالى تحقيقٌ لحكم التَّوكُّل والتَّسليم، ودفعٌ لشبهة بشريَّةِ القول بوصفه تقريرًا لحكم غيبيٍّ، لا يعلم كُنْهه إلَّا الخالقُ جلَّ في علاه.

نُكتةُ النَّفْي بـ﴿لَّن﴾:

تأكيدُ التَّسليمِ والانقيادِ، إلى حقيقةِ وقوعِ ما كتبَ الله وقدّرَ

تدخلُ (لن) على الفعل المضارع، فتخلِّصُه للاستقبال، وتنْفيه نفيًا مؤكَّدًا مشدَّدًا، ونفيُ المستقبل بها قد يكون ممتدًّا متطاولًا كما في جملة: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، فإيثارُ استعمالها هاهنا لتأكيد التَّسليم بأنَّ المكتوبَ مِنَ اللّه واقعٌ، مُحقَّقٌ، مُتمكِّنٌ منهم.

إيثارُ لفظِ الإصابةِ بقوله: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾:

توكُّلُ المؤمنين على الله مُطلقٌ، مهما يكنْ عِظَمُ المصيبةِ وهولُها

عبَّرَ بلفظ الإصابة؛ لكونها تُستَعملُ في الخير والشَّرِّ - كما مرَّ آنفًا؛ فالإصابةُ في الخير اعتدادٌ بالصَّواب، أي: المطر، وفي الشَّرِّ اعتبارٌ بإصابة السَّهم، وهي مظنَّةُ التَّأثيرِ القويِّ والشَّديدِ، ومن هنا كانت مناسبةً لاصطفائها في هذا المقام بوصف المكتوب متضمِّنًا للخير، ولما يُظنُّ أنَّه شرٌّ مع أنَّه للمسلم خير، فضلًا عمَّا يتضمَّنُه السِّياق، ومعنى لفظ الإصابة من الدَّلالة على مطلق التوكُّل، فهم متوكِّلون على اللّه ربِّهم مهما عظُمَ تأثيرُ المصيبة.

وَجْهُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

زمنُ الإصابةِ ممتدٌّ، ليشملَ الحالَ والاستقبالَ

في قوله: ﴿يُصِيبَنَآ﴾، التَّعبيرُ عنِ الفعل مضارعًا فيه دلالةٌ على امتداد زمن الإصابةِ منَ الحال، وخلوصِه إلى الاستقبال بأمارة (لن)، فأنَّى تكرَّرت مستقبلًا؛ فإنَّ التَّسليمَ واقعٌ، والتَّوكُّلَ حاضرٌ.

بَلاغةُ الإيجاز بالحذفِ:

تعدُّدُ دلالاتِ تقديرِ المكتوب، أمارةُ التَّسليمِ المطلَقِ

أوجزَ في التَّعبير مكتفيًا بالمذكور تاركًا تقديرَ المكتوب ممَّا يصيبُ محتملًا مختلفَ الدّلالات، أوجزها الرَّازيّ بثلاثة أقوال:

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/5905.

أوَّلها: أنَّه لن يصيبنا خيرٌ ولا شرٌّ، ولا خوف ولا رجاء، ولا شدَّةٌ ولا رخاء، إلَّا وهو مقدَّرٌ علينا مكتوبٌ معلوم عند الله، مقضيٌّ به عنده. وثانيها: أنَّه لن يصيبنا في عاقبة أمرنا بعد الغمِّ والهمِّ إلَّا الظَّفرُ بالعدوِّ، والاستيلاءُ عليهم وحكمهم؛ فيكون ذلك اغتياظًا للمنافقين، وردًّا عليهم في ذلك الفرح. وثالثها: إذا صرنا مغلوبين؛ صرنا مستحقِّين للأجر العظيم، والثَّواب الكثير، وإن صرنا غالبين؛ صرنا مستحقِّين للثَّواب في الآخرة، وفُزنا بالغنائم والثَّناء الجميل في الدُّنيا، وعليه فإنَّ المصائب والمحزِنات كلَّها مُتحمَّلة في جنب هذا الفوز بهذه الدَّرجات العالية[1].

بَلاغةُ القصْرِ بالنَّفْيِ والاستثناء:

أدَّتِ الجملةُ المتضمِّنةُ للنَّفي بـ(لن)، والاستثناءِ بـ(إلا) ههنا معنى قصْرِ الإصابة على ما كتبَ الله تعالى بما تدلُّ عليه بالوضع اللُّغويِّ، والغرض المبالغةُ في التَّوكُّل على الله تعالى، والتَّسليم له، والتَّعريض بالمنافقين من حيث حزنُهم؛ إذا أُنعِمَ على المسلمين، وفرحهم؛ إذا أصابهم سوءٌ، في حين أنَّ المسلم متوكِّلٌ على الله في رخائه وشدَّتِه، فهو في رضًا دائم.

في الحصْرِ مبالغةٌ في التَّوكُّل، إذ لا مُتوكَّلَ عليه سِوى الله تعالى

عِلَّةُ التَّعبيرِ عنِ الكتابة بالفعل الماضي:

اخْتُلِفَ في تأويل معنى الكتابة بالجعلِ والقضاء بين المثبَّت في اللَّوح المحفوظِ ممَّا هو كائنٌ، أو المذكور في القرآن الكريم[2]، والتَّعبيرُ عنه ههنا بصيغة الماضي يدلُّ على وقوع الكتابة، وصدق تحقُّق حدثها، ولزوم الإصابة بما دُوِّن منها بمشيئة الله تعالى، واختياره، وعلمه، وإرادته جلَّ في علاه.

وقوعُ ما كتبَ اللهُ محقَّقٌ ثابتٌ، من كلِّ نازلٍ أو نابتٍ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/67.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/272.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لَنَا﴾ ودَلالةُ اللَّام:

كـلُّ مـا يصيبُ المسلـمَ نـفـعٌ محضٌ له، مهما آلَهَ أو حرمَه

وذكر (لَنَا) في قوله: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، ولم يقل: (علينا)؛ تنبيهًا على أَنَّ كلَّ ما يصيبُنا نعدُّه نعمةً لَنَا، ولا نعدُّه نقمةً علينا[1]. "فلم يكتب سبحانه الأمور علينا، بل لنا، و(لنا) تفيد الملكية؛ إمَّا: تأديبًا وإمَّا تكفيرًا عن ذنوب، وإمَّا اتِّجاهًا إلى الحقِّ بعد زيغ الباطل، وكلُّ ذلك لصالحنا"[2]. واللَّام مفيدةٌ معنى الاختصاص، كأنَّه قيل: لن يُصيبنا إلَّا ما اختصَّنا الله به بإثباته وإيجابه من النُّصرةِ عليكم أو الشَّهادة[3]. "فهو نفعٌ محضٌ كما تدلُّ عليه تعديةُ فعلِ (كَتَبَ) باللام المؤذنة بأنَّه كتبَ ذلك لنفعهم"[4].

بَلاغةُ الفضْلِ، في جملةِ: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾:

لـن يكتبَ اللهُ للمسلمِ إلَّا ما فيه خيرُهُ ونفعُه، وصلاحُ أمرِه

قصرُ الولايةِ في قوله: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ عليه ﷻ بتقديمِ الضَّمير (هو)، وهي جملةٌ في موضع الحال من اسم الجلالة، أو معترضةٌ، أو تعليليَّة، أي: لا يصيبنا إلَّا ما قدَّره الله لنا، ولنا الرَّجاء بأنَّه لا يكتب لنا إلَّا ما فيه خيرُنا العاجل أو الآجل؛ لأنَّ المولى لا يرضى لمولاه الخزي[5].

إيثارُ لفظِ ﴿مَوْلَىٰنَا﴾، في السّياق:

الإقرارُ بالولاية، أمارةُ التّسليمِ، لقدَرِ اللهِ الحكيمِ

أي: متولِّي أمورَنا الدِّينيَّةَ والدّنيويّةَ، ومعتمَدُنا في جَلْب المصالحِ، ودَفْعِ المَضارِّ، وثقتنا في تحصيل المطلوب، ومَن حالُهُ كذلك لزامٌ عليه الرِّضا بأقداره، والتَّسليم لمشيئته، فليس في يديه منَ الأمر شيءٌ[6].

عِلَّةُ الإظهارِ، في مقام الإضمار:

إظهارُ اسمِهِ الأعظمِ جلَّ شأنُهُ، قرينُ مواضعِ القُدرة

أظهرَ الاسمَ الجليلَ في مقام الإضمارِ؛ لقصد التبرُّكِ به،

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5179.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/332.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/278.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/223.
(6) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 339 - 340.

والتَّلذُّذِ بذِكْره[1]، وفيه دلالةٌ على زيادة التَّفخيم؛ إذ من عادات القرآن قصْدُ إظهار اسمهِ الأعظم في مواطن القدرة، والإمكان، والجلال باستحضار عظمةِ اللّٰه تعالى بما يحويه اسمُ الجلالة من معاني الكمال، ولتكونَ الجملة مستقلَّةً بنفسها، فتكون جاريةً مجرى الأمثال والكلم الجوامع[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالموصول (ما):

لا يَـقـدرُ على كتابة تفاصيلِ القدَرِ، إلّاخالقُ الـوجـودِ، وربُّ البشرِ

المكتوب عامٌّ غيرُ مخصَّصٍ بتفصيل، مجهولٌ غير معلومٍ عند البشر، ولذلك اختيرَ الموصولُ الَّذي يُناسبه، الدَّالُّ على الاستغراق، والعمومِ، وإجراء الوصف بالموصولِ على اسم الجلالة لزيادة التَّفخيم؛ لأنَّ كتابةَ كلِّ شيء، ما دقَّ منه، وتناهى في الصِّغر صفةٌ عظيمة لا يقدر عليها إلَّا اللّٰه تعالى. وللتَّنبيهِ على أنَّ التَّوكُّل من آثارِ رحمته، ومظاهرِ عنايته، وكمال قدرته.

تَوجيهُ العطفِ بالواو، في جملةِ التوكُّلِ على الله الأجلِّ:

جملةُ التَّوكُّلِ تحتملُ الإخبارَ المباشرَ، أو أنَّها تـتـمَّـةٌ لـجـملة القولِ

وجملةُ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ يجوزُ أن تكونَ معطوفةً على جملةِ ﴿قُل﴾؛ فهيَ من كلام اللّٰه تعالى خبرًا في معنى الأمر، أي: قل ذلك، ولا تتوكَّلوا إلَّا على اللّٰه دون نُصْرة هؤلاءِ، أي: اعتمدوا على فضلهِ عليكم.

ويجوز أن تكونَ معطوفةً على جملة ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾، أي: قل ذلك لهم، وقل لهم: إنَّ المؤمنين لا يتوكَّلون إلَّا على اللّٰه، أيْ: يؤمنون بأنَّه مؤيِّدهم، وليس تأييدهم بإعانتكم، وتفصيلُ هذا الإجمال في الجملة الَّتي بعدها[3].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/358.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/282.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223.

سِرُّ تقديمِ شِبْه الجملةِ، على طرفَيِ الإسنادِ الفعلِ والفاعلِ:

توكُّلُ المسلمين في جميع الأمورِ، مختصٌّ باللهِ وحده دونَ سواه

قدَّمَ الجارَّ والمجرور ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾، على الفعلِ وفاعلِه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لإفادة القصْرِ، والحصْرِ[1]. والتَّوكُّلُ على الله تفويضُ الأمور إليه، والمعنى: أنَّ من حقِّ المؤمنين أنْ يجعلوا توكُّلهم في جميع أمورهم مختصًّا بالله سبحانه لا يتوكَّلون على غيره[2]. وهذا كالتَّنبيهِ على أنَّ حال المنافقين بالضِّدِّ من ذلك، وأنَّهم لا يتوكَّلون إلَّا على الأسباب الدُّنيويَّةِ واللَّذات العاجلة الفانية[3].

دَلالةُ الفاءِ، في الفعْلِ ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾:

سببيَّةُ الفاءِ توجبُ التَّوكُّلَ، وجزائيَّتُها تُشعِرُ بالتَّرتُّبِ

الفاءُ في ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ سببيَّةٌ، والأصلُ: ليتوكَّلْ، وأُدخلت ههنا للدَّلالة على إيجابِهِ تعالى للتوكُّل، كما في قوله: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[4]. وهي تدلُّ على محذوف مفرَّعٍ عليه اقتضاه تقديمُ المعمول[5]، ولفصلِ فعل الأمر عن الإخبار[6].

ويرى الطَّيبيُّ أنَّ الفاءَ جزائيَّةٌ تُشعر بالتَّرتُّب، أي: إذا كان لن يصيبنا إلَّا ما اختصَّنا الله تعالى به من النُّصرةِ أو الشَّهادة، وأنَّه يتولَّى أمرنا، فلنفعل ما هو حقُّنا من اختصاصه بالتَّوكُّل، كأنَّه قابلَ قولَ المنافقين: (قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا الذي نحن متَّسمون به من الحذرِ والتيقُّظ والعمل بالحزم)، بدأب المؤمنين على ألَّا يتوكَّلوا على حزْمِهم وتيقُّظ أنفسِهم، كما هو دأبُ المنافقين ذلك، بل أن يتوكَّلوا على الله وحده، ويفوِّضوا أمورهم إليه[7].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/67.
(2) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 5/319.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/67.
(4) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 5/319.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3328.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/267.

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ التَّوكُّل، بصيغة المضارع المسبوقِ بلام الأمر:

قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾، تعبير عنِ التّوكُّل على الله بصيغة أمرِ المؤمنين؛ ربْطًا على قلوبهم، وتثبيتًا لنفوسِهم لكيلَا يأسَفوا من أذى المنافقين؛ فإنَّ ذلك لن يضرَّهم؛ فإنَّ عزَّة المؤمن ونصرَهُ وتمكينَهُ بالتَّوكُّل على الله[1].

عِـــزَّةُ المـؤمـنِ بـالـتَّـوكُّـلِ على الله تعالى، ومَنْ توكّلَ عليه كفاه وحمَاه

بديعُ إيثارِ المُظْهَرِ على المُضْمَرِ:

وضعَ المؤمنين على إرادةِ الجنس موضعَ ضميرِ المتكلِّم، فأظهرَ اللَّفظَ، ولم يقل: وعلى الله فليتوكَّلوا؛ ليؤذِنَ بأنَّ شأنَ المؤمن، وديدنه، ومعتادَ فِعْلِهِ اختصاصُ التوكُّل بالله[2]. ولما في لفظ (المؤمنون) من العموم الشَّامل للمخاطَبين وغيرهم، ولتكونَ الجملةُ مستقلَّةً، فتسري مسرى المثل[3].

التوكُّلُ لا يَنفكُّ عنِ الإيمان، بل إنّ التّوكّلَ مَظهرٌ من مظاهرِه

وَجْهُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وجمعِه:

(أل) في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ جنسيَّةٌ، رسَّخ دلالتَها على الشُّمول جمعُ السَّلامة، فشأنُ التَّوكُّلِ على الله، والتسليم له، والخضوع لأمره يخصُّ كلَّ المؤمنين، بل تخصُّ عموم المخاطَبين بحسب ما ذُكرَ.

شـأنُ الـتـوكُّـلِ يـخـصُّ كـلَّ مؤمنٍ، ويهمّمه ويُهمّه في عاجلِ أمـرِه وعـاجـلـه وآجلِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/282.
(2) الطّيبّي، فتوح الغيب: 7/267.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/282.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»